شهادة الصلاحية للزواج

للكاتب الفرنسي بول بورجيه

بقلم الأديب عبد الله الرياشي

قال أحد المدعوين بمناسبة طلاق مشؤوم : يجب الحصول على شهادة صلاحية للزواج ... فقد عرفت فتاة كانت زهرة يانعة رطبة الغصن باهرة الجمال لوثها زوجها بشكل مروع منذ ليلة زفافها إليه . فقال الطبيب س ... عند ما سمع ذلك :

— لقد كثر فعلاً حديث الناس عن هذه الشهادة ، وثار الرأي العام ، وبدأ بعض النواب في التفكير فيها . وفي مثل هذه الحال التي تتكلم عنها يميل الانسان إلى الاعتقاد بأن التشريع الذي يقضي بوجوب الحصول عليها قبل الزواج يكون تشريعاً مفيداً . أما إذا فكر الانسان في المسألة فانها لاتبدو بهذه السهولة . فكم تثير من المشاكل ! ثم هناك الصعوبة التي يجدها الطبيب في تسع حالات من عشر في تشخيصها تشخيصاً علمياً أكيداً . لم يبق إلا الحال العاشرة التي ضربت لنا مثلا منها ، ولكن ما العمل في التسع الأخرى...! وإنني لأسائل نفسي كم من زواج موفق قد يصير امتناعه بناء على دلائل خداعة لأمراض لن تظهر ألبتة . وكم من القلوب الفتية المتوثبة تتمزق وتسحق بناء على قرار أساسه نظرية قد يظهر فسادها فيما بعد ! وهذا بخلاف الأحوال التي يستعمل فيها الغش والتزوير . اسمعوا هذه الحادثة التي ما زالت ذكراها راسخة في ذهني فقد كانت من الحوادث التي أثارت حزني وألمي وفي نفس الوقت كانت عزائي في مهنتي . ولايدهشكم هذان التعبيران المتناقضان لأنكم ستوافقونني متى انتهيت من سرد قصتي

كان في المستشفى المتنقل الذي كنت أعمل فيه أثناء الحرب في الريف امرأتان هما أم وابنتها سأدعوهما إذا شئتم السيدة لور والآنسة لوز ؛ وكانت كل منهما مثالاً عالياً للتفاني في العمل والنشاط والاخلاص

إن تعلق الطبيب بمساعديه هو إحدى العواطف التي يخلقها الاشتراك في العمل ، وهي عاطفة لا نجد لها مثيلاً في المهن الأخرى، وتستمر إلى مابعد انتهاء العمل معاً ، ولكننا معشر الأطباء عند ما نؤوب إلى عياداتنا لايترك لنا مرضانا الوقت الكافي لتبادل المكاتبات ، فانني عند ما عدت إلى باريس انقطعت عن مراسلة هاتين المرضتين النشيطتين . وكانتا تقطنان بإحدى مدن الجنوب حيث كان زوج السيدة لور يتعاطى أعمال المصارف . ولكن سكوت رجال الأعمال لايتخذ دليلاً على النسيان، إذ أن هذا ماشعرت به عند ما رأيت ذات يوم السيدة لور تدخل مكتبي أثناء عيادتي للمرضى فقلت لها :

— آه ! أهذه أنت في عيادتي : أنا الذي مازال ضميري يؤنبني منذ حضوري إلى هنا لأنني لم أجب على خطاب واحد من خطاباتك العديدة ! يسرني أن أنتهز الفرصة لتقديم اعتذاري لولا أنني ألاحظ أنك جئت في طلب استشارتي ...

— لك كل العذر يا سيدي الطبيب فإن وقتك أثمن من أن تضيعه . ومع ذلك فقد جئت أسألك

(*) في الأصل الفرنسي « شهادة ما قبل الزواج » "Certificat Prénuptial"

منحي بعض هـذا الوقت ليس لنفسي لأنني لست مريضة ولكن لابنتي

— هل الآنسة لويز مريضة في باريس ؟

— لا يا سيدي الطبيب ولكنها ستتزوج أو على الأقل طلبها شاب يعجبها جداً للزواج وهو شاب نبيه وظريف للغاية عيّن منذ سنة في مدينتنا مهندساً للطرق والجسور . وقد طلبت وزوجي مهلة سنة لتبليغه ردنا إذ نريد وضع بعض الشروط قبل موافقتنا، لأن هذا الشاب خاض غمار الحرب بكل شجاعة وأصابته الغازات السامة تحت أسوار فردان . ولما كنت عرفت أثناء اشتغالي بالتمريض ومنك شخصياً أن أكبر أضرار هذه الغازات هو تعريض ضحاياها لمطب الرئات، ولما كان والدا لوسيان — وهو اسم الشاب — قد توفيا بذات الصدر فلا نقدر بل يجب ألا تزوج لويز بشاب مصدور ؛ وحينئذ ...

فقاطعتها قائلاً : وحينئذ خطر لكم أن تفحصوا عن مرض هذا الشاب بواسطة طبيب

— نعم يا سيدي الطبيب . لقد عرفت فكري

— وقد وقع اختياركم عليّ

— هذا طبعيّ فقد طالما رأينا منك العناية بأمرنا والميل إلينا ، ثم شاهدنا دقة استدلالك على مواضع الداء

— لقد عزب عن ذهنك يا سيدتي مسؤولية الطبيب وواجبه الصارم نحو سر المهنة . من منا لم ير بائساً كان يعالج فيه قروحاً مخجلة ومعدية تزوج فتاة طاهرة جميلة ومنعه واجبه من الكلام، بينما كان من السهل منع حدوث هذه الجريمة بكلمة واحدة. فإذا فحصت عن داء السيد لوسيان ووجدته مصاباً بالداء الذي تخشين فإن واجبي يمنعني من أن أبوح لك به

— أوافقك على ذلك ولكن ألا تبوح به له هو؟

— إنني لا أفهم غرضك

— إذا حتمت عليه أن يأتي إليك وأن يربي هو نفسه بعدئذ الشهادة فهل تعدّ ذلك من جهتك إخلالا بسر المهنة ؟

— طبعا لا . لأن من حق المريض أن يعرف حقيقة حاله، وللطبيب أن يرى إذا كانت هذه الحقيقة تفيد أو تضر بصحة هذا العليل الذي له أن يستعمل هذا التصريح الاستعمال الذي يلائمه

— وهل ترى ضررا في إظهار الحقيقة للمصدور!

— على العكس فهي مفيدة له إذا كان المرض في مبدئه . وبما أنك تشكين في حالة هذا الشاب فيفهم من ذلك أن إصابته ما زالت طفيفة . ولكن فكري مليا في الأمر ! إذا طلبت منه أن يستشيرني فمن المحتمل جدا أن يرفض محافظة على كرامته . ثم إذا كانت الآنسة لويز تحبه ...

فقاطعتني بحدة قائلة :

— إذا رفض لهذا السبب فهذا دليل على أنه لا يحبها ، وإذا كان لذلك فيكون طبيبه قد حذره فنصبح نحن على بينة من أمره .

ثم وقفت منعا لابداء أي اعتراض جديد وقالت سنعود إلى بيتنا مساء اليوم . زوجي وأنا . لأننا لم نحضر إلى باريس إلا لهذا السبب ، وغدا سأكلم لوسيان وسأنبئك ببرقية، وإذا قبل فسيكون عندك بعد الغد ... ولكنه سيقبل ...

ودعتُ السيدة لور وعدت إلى مكتبي وأنا أسائل نفسي : « هل يقبل؟» ومع ذلك فان موقعة

فردان كانت فى الوقت الذى كانت تستعمل فيه غازات البثور فلم تتعد الاصابات الرئوية ٨ ٪. أما فى سنتى ١٩١٥ و ١٩١٦ فى عهد غاز الكلور فقد بلغت ٢١ ٪. إذن فالأمل كبير فى ألا يكون ثمة ما يخشاه هذا الشاب من النتائج الوخيمة . إلا إذا كان للوراثة تأثير ! . . ولكن عزة نفسه تأبى عليه أن يقبل ولو كان سليما . . . بل خصوصا إذا كان سليما لأنه يعرف ولاشك مايخشون عليه منه فى المستقبل ، وإرغامه على استشارة طبيب لا يعرفه اتهام له بأنه لم يستشر طبيبه الخاص قبل أن يتقدم بطلب الزواج ، وهذا يعد غشا صريحا من جهته . لا ! إنه لن يقبل ولن أتحمل مسؤولية ادخال الحزن على قلب لويز الظريفة . إن نظرات هذه الطفلة وطول تفرسها لدليلان على عمق مشاعرها ورقة عاطفتها . وبما أنها تحب لوسيان هذا ...

وتمثلت الشابة الصغيرة فى مخيلتى وأنا أردد هذه الأفكار فى خاطرى كأنها ما زالت أمامى فى بهو المستشفى حيث كنت أعجب بها كثيرا وأنا أشاهد نشاطها ورزانتها وهى تنحنى على سرير أحد مرضاى لتضميد جراحه . إن حركات وسكنات الممرضة أثناء تأدية هذه الأعمال التى تمجها النفس أحيانا ولكن تتطلب دائما الكثير من الدقة والعناية تكون دلائل واضحة للطبيب الذى يرتبط تفكيره بهذه الأيدى النسائية التى تتكشف له منها طبيعتها الحقيقة كاملة

سترون أننى لم أخطئ عند ما عددت هذه البنية فى عداد بعض النفوس النادرة التى تستولى عليها العاطفة وتأسرها وإذا ما وهبت نفسها وهبتها إلى الأبد وبدون رجعى (١)

ستدركون بعد أن رأيتم انشغال فكرى بها إلى هذا الحد مقدار حيرتى واضطرابى عندما تسلمت فى اليوم التالى برقية من أمها هاكم نصها :

« لوسيان قد قبل . سيكون عندك غداً . شكراً جزيلاً »

وقبل انقضاء أربع وعشرين ساعة دخل إلى مكتبى خاطب لويز . ستعلمون مبلغ دهشى بعد الذى حدثتكم عن ميلى وإعجابى بهذه البنية الظريفة الرقيقة الاحساس عندما وقع نظرى على الذى تحبه لدرجة التدله كما أخبرتنى والدتها إذ لم ألمح فيه أى صفة أو سيماء تبرر أو تفسر مثل هذه العاطفة الجامحة . فوجهه المستدير الضخم الذى يبسم لكل شىء يدل على أنه ولد طيب ، ولكن عادى بشكل ظاهر . وقد لاحظت أنه متهيب ويخفى ما به من الاضطراب تحت ستار من المرح الذى كان طبيعياً فيه ولاشك . كنت أقرأ اضطرابه مسطراً وراء جفنيه ، ثم تبادر إلى ذهنى أن شجاعته التى يدل عليها الشريط المثبت فى عروته هى التى سحرت خطيبته المقبلة . وبمجرد النظر إليه يترجح أنه لا يخشى عليه من التدرن الرئوى . ثم إن الفحص الذى شرعت فيه ، وأنا أقل ما أكون رغبة فى العثور على دليل بشير ريبتى أثبت لى أن نظرتى الأولى كانت صادقة فوقعت بامضائى على شهادة الصحة التامة التى حتم والد لويز عليه إحضارها . وقلت أخاطب نفسى بينما كنت أرافقه مودعاً وأنا أوشك أن أغضب من كثرة ما أبدى لى من الشكر : « وهذه أيضاً إحدى نتائج الحرب المحزنة . الاندفاع الوهمى الذى يساور الناس فى الشبان الذين خاضوا غمارها ، ثم إذا عادوا إلى الحياة العامة كانوا أناساً أقل من

(١) الرجعى والرجعة والرجوع والمرجع من رجع يرجع

العاديين ، وكثيراً من الأحيان متوحشين تظن الفتاة الخيالية أنها ستتزوج فارساً كريماً وإذا بفارسها هذا عامى خشن كما يظهر لى هذا الشاب . ما أعظم الصدمة عندما تتكشف الحقيقة للوز الصغيرة إلا إذا كنت قد أخطأت فى حقيقة نفسيتها وكانت فى الحياة العامة غيرها فى المستشفى كما يدل عليه هذا الاختيار أكبر دلالة

ولكن لا ! فان نظرتى كرئيس عيادة لم تخدعنى وقد ألفت إحدى الصدف التى تحدث يومياً للطبيب بالدليل القاطع . وبهذه المناسبة ما هى الصدفة ؟ هى وقوع ظروف وحوادث لم يكن فى الامكان التنبؤ بحدوثها . وبالفعل أى طبيب يمكنه أن يتنبأ بأن المريض الفلانى الذى لم يكن له به سابق معرفة سيستدعيه، وأن دعوته هذه ستكون سبباً فى وقوع حوادث غير منتظرة ، إذ لم تمض فترة كبيرة على عيادتى لضحية غازات فردان حتى كنت قد استلمت برقية من السيدة لور تخبرنى فيها بمزيد السرور بخطبة الشابين . ثم تلا البرقية كتاب يطفح غبطة وحبوراً تبدي لى فيه أسفها لأن الزواج الذى سيتم قريباً جداً بناء على إلحاح ابنتها كما قالت لم يحدد له يوم يلائمنى ، وإلا كانت رجتنى فى أن أكون أحد الشهود ، وإنها تعلم أن كثرة أشغالى لاتتحمل بضعة أيام أتغيبها عن مرضاى وعن مستشفاى . وكانت تسكن على بعد عشر ساعات بالسكة الحديدية من باريس. وها كم المصادفة التي كنت أكلمكم عنها

دعانى بعد بضعة أيام زميلان لى من تلك الجهة للتشاور فى قصر قريب من مدينتها، فحددت أقرب يوم سبت للمشاورة المطلوبة رغبة منى فى زيارة ممرضتى السابقتين فى يوم الأحد لأستطيع العودة إلى أداء واجبى فى المستشفى فى يوم الاثنين بعد تمضية الليل مسافراً فى القطار فقد اعتدت بحكم المهنة النوم في أى ظرف وجدت فيه . وكنت أشعر برغبة شديدة تحفزنى إلى رؤية مقر أعمالى أثناء الحرب . ولما كنت دائماً ميالا كما يقول ستاند هول إلى «معرفة كنه الشىء على حقيقته» فقد كنت تواقاً إلى معرفة صلة لوز بخطيبها الذى لم أكن أراه جديراً بها ، واشتدت بى الرغبة حتى أننى بدل أن أنام فى القصر حيث أراد أصحابه أن يحجزونى طلبت أن يقودونى بالسيارة بعد الاستشارة مباشرة إلى مدينة ممرضتى الظريفة النشيطة التى كانت تعد نفسها للارتباط إلى الأبد بهذا الرجل الخشن الذى أثار كراهيتى إلى هذه الدرجة فوصلت فى الساعة السادسة ومن المنزل اتصلت تليفونياً بالسيدة لور فى الحال ولحسن الحظ وجدتها فقالت لى :

— كيف لم تنبئنى بحضورك يا سيدى الطبيب؟ إن عملك هذا سيئ بل سيئ جداً ولكننى أسامحك إذا أتيت فى الساعة الثامنة لتناول العشاء مع الخطيبين وبعض الأصدقاء ؛ ولا بأس من حضورك بملابس السفر طبعاً ، غير أننى أرجوك أن تبكر قليلا عن الموعد لأن ابنتى تشعر بانحطاط وأظن أن كثرة العمل قد أنهكتها ولذا أرغب فى أن أعرف رأيك. فقلت لنفسى : « أبدأت الغمامة تنقشع عن بصرها؟ ومع ذلك فما زال أمامها متسع من الوقت » وثار فضولى وتنبهت غريزة التطلع فىّ عند ما أدخلنى الخادم فى غرفة الاستقبال التى كنت أعرفها من قبل كل المعرفة إذ كثر ما جئت وقتذاك لزيارة ممرضتى المفضلتين كلما سمح لى الوقت بين عيادة وأخرى . وقوة اللاحظة التى يمتاز بها الطبيب

شديدة جداً عندى ؛ ففى بضع الدقائق التى مكثت فيها وحدى لاحظت وجود مسند تصوير عليه صورة بالفحم لم أكن أعرفها . والصورة جانبية لفتى تبدو عليه بشكل غريب سيماء النباهة وعزة النفس؛ وكنت أعرف أن للويز بعض الالمام بأصول الرسم، وقد دلنى توقيعها تحت الصورة على أنها من صنعها فوقفت مشدوهاً من إتقانها ودقتها مع أن البرهان كان أمامى . ثم قطع علىّ تأملى صوت السيدة لور إذ دخلت وكانت ابنتها بالطبع معها وقالت لى هذه الكلمات التى لم أفقه معناها والذى فهمته بعد قليل وربما كان الاستفهام عنها ذا عواقب وخيمة « ألا تشبهه تماماً ؟ مع أنها لم تصنعها إلا فى ثلاث جلسات ؟ ... ولكن ما بك يا ابنتى ! ... »

وكانت لويز قد وقعت فجأة على أحد المقاعد وهى متهالكة وقد غاض الدم من وجهها وكأنها فقدت وعيها بينما كانت أمها تواصل حديثها دون أن تترك لى الوقت لكى أجيبها على سؤالها عن التشابه إذ كان يفهم منه أننى أعرف النموذج الذى نقلت عنه هذه الصورة

— لقد شاهدت بنفسك مقدار ضعف أعصابها والدوار يعتريها باستمرار ! ... أرجوك أن تفحص عن دائها كما طلبت منك . ألا تتفضل بالذهاب إلى مخدعها ؟ أتستطيعين المشى يا ابنتى ؟ فأجبتها وأنا أساعد ابنتها على الوقوف . طبعاً يا سيدتى ، استندى علىّ يا آنسة ، وأنت يا سيدتى هدئى روعك فلا خوف عليها

وقد دلنى تقبض يد لويز على معصمى وارتعاش ذراعها على ما بها من اضطراب أخذ يهدأ شيئاً فشيئاً منذ خرجنا من القاعة . ثم دخلنا مخدعها فاقنعتها بالرقاد على السرير . ولما ملت عليها لكى أثبت رأسها على الوسادة قالت لى هامسة : « أخرج أمى . أخرجها بأى شكل » وبدا عليها الانزعاج والرعب حتى أننى أطعتها طبقاً المبدأ القديم الذى يقرر عدم التصادم مع المصابين . فالتفت إلى والدتها قائلا: « أكرر لك يا سيدتى أن لا خوف عليها . سترتاح الآنسة قليلا بينما أوجه إليها بعض الأسئلة وأظن أننى أستطيع أن أؤكد لك أننى سأعود إليك بها بعد نصف ساعة وهى على أحسن حال مستعدة لتناول الطعام كأن لم يكن هذا الحادث الذى أثارته حرارة الجو ولا شك — فقد كنا فى شهر يونيو — فقالت السيدة لور :

— أنا ذاهبة إذن لأصدر بعض الأوامر ... ومع ذلك فها هو ذا الدم قد أخذ يتصاعد إلى وجنتيها . ثم قبلتها وقالت وهى تدللها : أجيبى بدقة على أسئلة الطبيب أيتها البنت الخبيثة ... ثم فكرى فيما يصيب لوسيان المسكين لو رآك فى الحال التى كنت عليها ! وأنت يا سيدى الطبيب أرجو المعذرة من مثل هذه المقابلة؛ وإذا احتجت إلى قدق الجرس فأعود سريعاً

وما كادت تقفل الباب حتى قامت لويز وقالت لى : « لا داعى لتوجيه الأسئلة إلى يا سيدى الطبيب فليس بى من مرض وإنما صعقت عند ما رأيتك تنظر إلى تلك الصورة التى وضعتها أمى هناك خصيصاً لك لكى تهنئنى . إنها صورة خطيبى الحقيقى لا الذى جاءك فى باريس ... » وعند ما رأت عجبى قالت : « آه . لا يمكنك أن تفهم ... إننى أنا الذى أردت أن يطلب لوسيان من أحد أصدقائه — وهو زميل أنقذ لوسيان حياته فى فردان فأصبح يخلص له إخلاصاً أخوياً — أن يلعب هذا الدور فيذهب

إليك بدله متسمياً باسمه للحصول على الشهادة التى ما كنت تقبل أن تعطيها له هو الذى يعرف نفسه معرضاً لذات الصدر فيمتنع زواجنا وكان لا بد لى أن أتزوجه » . ثم عادت فقالت وهى تشد على معصمى بقسوة وحشية هذه المرة : « لا بد لى » . ثم بصوت متحشرج : « إننى حليلته وأنا حامل » ثم وضعت كفيها على وجهها وأخذت تنتحب وتنشج وهى تواصل اعترافها المحزن :

— عرفت من أمى فى الساعة السادسة أنك جئت إلى هنا وأنك ستأتى هذا المساء لتناول العشاء. لم يكن ثمة مناص من وقوع المأساة وانكشاف الحقيقة فطرد لوسيان من بيتنا عند ما تقول : « ولكن ليس هـذا الذى جاءني فى باريس . . . » فاذا كان يحدث لى أنا المدلهة بحبه ! . . خرجت معتذرة بعذر ما وجريت إلى الفندق الذى نزلت فيه والذى عرفت عنوانه من أمى ... ولكنك لم تكن هناك فعدت إلي هنا ولكن بعد أن كانت قد وضعت الصورة فى الغرفة . ولحسن الحظ أنها كانت طلبت منك أن تبكر قليـلا عن الموعد لأن صحتى أهمتها. وكانت كثرة الاضطرابات النفسية قد أتعبتنى فوطنت النفس على أن أصارحك وأن تعرف كل شىء إذ ماذا كان يحدث لو أجبت على سؤال والدتى : «تشبهه؟ ولـكننى لا أعرف الأصل ... » أكرر لك القول هناك كانت المساة بل الكارثة . ولـكننى لحسن الحظ شعرت بالألم قبـل أن تتكلم ... والآن هل ستتكلم ؟ .. فقلت لها وقد تملكنى الفزع من هول ما سمعت « ولكن واجبي يا آنسة ! .. إنك تطلبين منى شهادة زور وشهادة زور تتعلق بجثتى » .

كانت قد انتهت من البكاء فخدجتنى ببصرها وقالت لى بعزم أشعرنى بأنها ان تثنى عما قررته

— ليس الوقت وقت مناقشة وقد أوشكت أمى أن تعود فخبرها فى الحال إذا كنت انتويت إخبارها فتكون قد رحمتنى لأن هذا الشك يقتلنى ، ولـكن تيقن من أننى عندما أخرج من هذه الغرفة سأذهب لأنتحر ولك الخيار الآن فيما تقرر ...

وجلست إلى منضدة الزينة وأخذت تصفف شعرها بهدوء أمام المرآة كأن الحديث الذى تبادلناه كان حديثاً عادياً . وكنت أرى وجهها الجميل وقد هدأ الآن كما يحدث فى الأزمات الداخلية إذ تتركز الثورة فى قرار ينقذ النفس منها فترتاح إليه مهما يكن الشر المنطوى عليه . ماذا يجب علىّ إذاً أن أصنع ؟ وما هو واجبى ؟ وهل تهديدها بالانتحار صادق ؟ ولـكن وجه الفتاة الثابت أزال كل أثر للشك من مخيلتى ، فاذا تكلمت انتحرت ، ولـكن لو سكت عن واجبى لـكنت شريكا فى هذا الخداع ولـكى يقبل خطيب هذه الفتاة التعسة الموافقة على إحلال آخر محله فى مسألة الشهادة يجب أن يكون إما ضعيف الارادة إذا كانت الفـكرة فـكرتهـا أو سافلاً إذا كان هو الذي فـكر فى هذا الخداع. المقوت . وثمة إغواؤها وحملها منه ! هل يجب أن أشترك فى هذه المخازى يكذبى على أمها التى ستكون هنا بعد بضع دقائق . هذه الأم ذات النفس العالية والاخلاص وكرم الأخلاق ! هـذه الخلال التي كثيراً ما برهنت عليها فى المستشفى؟ هاهى ذى تقترب فعلاً . إذ تنبهت حواسى كما يحدث للانسان فى الأحوال العصبية الشديدة ، فسمعت وقع خطواتها

فى الغرفة المجاورة كما سمعته لويز أيضاً . فالتفتت واتجهت نحو الباب ونظرت إلى مرة أخرى وهى ملازمة الصمت ، فتبين لى أنها ستقف هناك مستعدة للخروج إذا دلتها كلماتى الأولى على أننى لا أوافقها. فهل كانت تخبئ سلاحاً أو قارورة سم أم كانت تفكر فى إلقاء نفسها من نافذة غرفة مجاورة ؟ لم يبق ثمة مجال للتردد بعد أن تيقنت أن وقوع المصيبة — التى لا يمكن تلافيها لو وقعت — متعلق بى . فان الكلام معناه قتل هذه الطفلة المسكينة التى باحت إلىّ بسرها المشؤوم ووضعت مصيرها بين يدي . وفجأة اتخذت قراراً كما يحدث كثيراً لأحد الجراحين أثناء إحدى العمليات الصعبة إذ تطرأ له فكرة فيتخذ قراراً حاسماً ، قلت لنفسى : « ماذا تخشى الأم أن يحتاز ابنتها مصدور فتحمل منه ؟ إنها لم تستطع منع هذه النكبة فما الفائدة من إخبارها إلا وقوعها في نكبة أعظم ! إذن فواجبى كطبيب يعرف ما عرفته وما يمكن حصوله بل ما لا بد حاصل — هو السكوت

وبينما والدتها تدخل المخدع فاجأتها قبل أن توجه إلى أى سؤال بقولى : « اطمئنى ياسيدتى . ليس بالآنسة شيء سوى بعض الإعياء وهو طبعي فى الأحوال الراهنة . فهناك التعب فى إعداد معدات الزواج . وليس لدى ما أصفه لها بل أنصحها فقط ألا ترهق نفسها »

لم أكن مزهواً طبعا وأنا أنطق كلماتى هذه التى جعلتنى أس هذا التواطؤ الذى اشمأزت منه نفسى فى مبدأ الأمر . وبدل أن تلطف نظرات الفتاة التى كانت تعبر عن الشكر من حدتى أهاجتنى كأنها كانت سبة موجهة إلىّ . وبعد دخول والدتها وسكوتى عدنا إلى غرفة الاستقبال الصغيرة حيث كان يجلس والد لويز وخطيبها الذى عرفته من مشابهته للرسم . فلم يظهر على الاندهاش عند ما تقدم لمصافحتى وهو مضطرب مما يدل على الخجل الذى كان يساوره والذى كان يجب أن أقدره له، ولكنى لم أر فى موقفه إلا دليلا على الرياء والخداع . إن هذا العشاء الذي جمع الأسرة وبعض الأصدقاء كان طويلا ومؤلما بالنسبة لى، فان مرح لويز الذى كنت أظنه مصطنعا كان يثير اشمئزازى كلما قهقهت ضاحكة، وكان السرور البادى على باقى الأضياف يؤلمنى أشد الألم، وكان شعورى أمام هؤلاء الناس السليمى النية بأننى حامى الرياء يضاعف وخز ضميرى . ولم أتخلص مما انتابنى إلا بعد انتهاء العشاء إذ بادرت بالهرب مدعيا التعب بسبب السفر وواعدا بالعودة في اليوم التالى للفطور بينما صممت على مغادرة المدينة فى نفس الليلة بقطار الساعة الحادية عشرة على أن أتخلص من وعدى تليفونيا عند وصولى إلى الفندق بدعوى ورود برقية تدعونى إلى العودة سريعا إلي باريس . وهذه كذبة أخرى ولكنكم تدركون طبعا أننى اغتفرتها لنفسى. أما الكذبة الأولى فكم كانت تؤلمنى وأنا عائد مضطرب الخاطر مثقل بالهموم

قلت لكم عندما بدأت هذه القصة إنها أثارت ألمى وحزنى إلى أقصى حد ، وإنها كانت فى نفس الوقت عزائى فى مهنتى . وها كم تفسير هذا التناقض فقد عدت إلى باريس بعد تلك الليلة المشؤومة مثقلا بالهم الذى اشتدت وطأته عندما وصلتنى الدعوة الرسمية إلى هذا الزواج الذى لعبت فيه بواسطة سكوتى دوراً يتنافى مع نزاهتى وصراحتى . فكم ندمت وقتئذ على سكوتى بل بلغت درجة الندم أننى برغم أبسط قواعد الأدب لم أرسل رداً ولو برقياً على هذه الدعوة . تصوروا مقدار تأثرى بعد يومين

من الحفلة التى كنت أعلم ما انطوت عليه من الغش عندما رأيت لويز نفسها تدخل مكتب العيادة وتجلس على نفس المقعد الذى جلست عليه أمها منذ ستة أسابيع . نعم رأيت لويز نفسها مشرقة الوجه تهتز طرباً فقالت لى عندما رأت صمتى ووجومى — فهل كنت أستطيع أن أرى فى هذه الزيارة إلا منتهى القحة؟

— نعم ! هذى أنا يا سيدى الطبيب . أنا التى كنت أرغب فى طلب غفرانك . لقد أدركت تماماً مقدار ألمك أثناء ذلك العشاء فأقمت أمام نفسى لآتينك لأشرح لك الأمر فى باريس . وهذا ما دعانى للحضور . ثم إننى لا أحتمل أن تظن فى زوجى أنه لم يرع الشرف وجعل منى خليلته قبل الزواج . إن هذا عين الخطأ لأنه ما انفك يحترم تلك التى ستحمل اسمه . أما هناك فقد كذبت عليك ، وإننى أتوسل إليك أن تسامحنى من أجل هذه الكذبة لأنه كان يجب علىّ أن أمنعك بكل طريقة من إخبار والدى بارسال بديل من لوسيان بعد أن عانيت ما عانيت فى إقناعه ، لأننى أنا التى فكرت فى هذه الطريقة للحصول على الشهادة التى فرضاها عليه . فلما جئت إلى هناك ، وجعلت تنظر إلى الصورة ودخلت أنا ووالدتى جننت فزعاً فوصمت نفسى أمامك بالعار ونطقت بكلمة الانتحار لأرغمك على السكوت . هل كنت أنتحر لو تكلمت ؟ لا أظن ! لأننى أحب لوسيان إلى أقصى حد ، بل كنت أهرب من البيت وأرتمى بين ذراعيه طالبة منه أن يأخذنى ضاربة صفحاً عن الزواج الدينى . ولكننى متدينة ففعلت أخيراً ما فعلت . لك أن تدينى كما تشاء ، ولكن لوسيان يجب أن يسترد اعتباره لديك لأننى عندما رويت له ذلك الفصل المروع أراد أن يكتب لك ، ولكننى رجوته فى أن يدع لى أنا الاعتراف لك بالحقيقة . إننى أشعر بالحاجة إلى أن تحترمه وأن تراه كما هو على حقيقته ، فكم أنبه ضميره وعذبه لأنه أرسل صديقه إليك بديلا منه . أكرر لك القول بأننى أنا التى أردت ذلك ، وإننى كنت أحبه فوق الطاقة

كثيراً ما فكرت فى أنه ينبعث من كل فرد منا إشعاع ينتقل منه إلى الآخرين بواسطة الاشارة أو النظر أو المحيا وأن هذا الاشعاع يوجد بين الأشخاص إما تنافراً قوياً وإما توافقاً لا يقاوم . وإلا فكيف نفسر الانقلاب الذى أحدثه هذا السمى الجديد الذى كان لى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أنه ينطوى على مكيدة جديدة مستترة بعد أن عرفت عن لويز أنها أهل لحبك مكرها ، ولا أظن أن أى كلمة مهما قست لا تصح أن تكون نعتاً للطريقة التى استعملتها هى وحبيبها للحصول على شهادة الصلاحية للزواج المزورة . ألم تتهم هى بذاتها نفسها بأنها مثلت أمامى دور الحبلى ودور المنتحرة اللذين أخفانى فى هذا الغش الذى ما زال ضميرى ويخزنى بسببه كل يوم ، ولكننى عندما كنت أشاهدها وأستمع إلى كلامها وأرى تأثرها وحماستها تتمحى كل تلك الأسباب فجأة وتعود لويز فى نظرى تلك المرضة الصغيرة التى كانت فى المستشفى والتى كنت أقدر فيها إخلاصها على صغر سنها . ولعل شيئاً من العطف الذى امتزج بتقديرى لها هو الذى جعل إفضاءها لى بغلطتها الأولى أشد وقعاً وأكثر إيلاماً كما جعلنى أشعر بالعزاء لدفاعها عن براءتها . وعلى كل حال فقد رأيتنى أجيبها :

— ليس ثمة ما يدعو إلى طلب الصفح يا سيدتى ..

فقاطعتنى قائلة :

— كنت فى المستشفى تدعونى لويز

فقلت لها إننى أقدرك الآن يا لويز كما كنت أقدرك هناك . لقد جزت دقيقة عصيبة جداً عندما سألتنى أمك عن الصورة ولكن يجب

أن تطلبي الصفح منها . فقالت :

— لا وجه لذلك إذا أنقذت زوجي لأنها كانت تريد ألا أتزوج مريضاً وكنت أنا موقنة من أنني سأخلصه . نعم إنه مريض ولكن بقدر يسير وما دعاني إلى الالتجاء إلى الطبيب الذى طالما رأيته يصنع العجائب عند ما كنت ملحقة بخدمته إلا لكي يعني بزوجي العزيز ويشفيه لي

لقد قبلت وبمساعدتها القيمة أمكنني أن أرى هذا العليل الذي ما كنت أوافق على زواجه ألبتة لو كان هو أتى بنفسه لأخلص عن دائه كما طلبت منه والدة لويز المدللة . حقا لم يمسّ المرض رئته إلا مسا رفيقا، وهو الآن وبعد مضي ست سنوات وبفضل عنايتها هي على الأخص قد أصبح بمنجاة من كل خطر . وقد أنجبا ثلاثة أولادهم مضرب المثل في في القوة والصحة ، وقد ولد أولهم بعد الزواج بعشرة أشهر وهذا دليل آخر على أنها اتهمت نفسها . ترون من هذه القصة أن فائدة شهادة الصلاحية للزواج ليست أكيدة كما يبدو لأول وهلة ، ولو أنها كانت مفروضة فعلا لما وجدت هذه الأسرة السعيدة . هذا ولكم أن تستخلصوا من هذه المأساة التي اشتركت فيها النتيجة التي تحلو لكم ، أما أنا فقد خرجت منها بهذه الحقيقة المؤثرة برغم بساطتها، وهي أن المرأة التي تحب حبا حقيقيا لا تثنيها عن عزمها صعوبة ما؛ فأظهر النساء تقدم على إتيان أحط الأمور أو أنبلها لتحقيق غرضها ، وإنه لمن عجائب الطبيعة وجود قلب كقلب لويز الذى يصنع العجائب وأمامكم هذا الزواج وهذا الشفاء أكبر دليلين على ذلك .

عبد الله الرياشي

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والايطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

عبد المعطي المسيري

يقدم كتابه الثاني

الظامئون

به القصص الآتية :

وكدى . بيني وبين نفسي . بيت الحظ . أول غرام . الصعاليك

قدم له القصصي العظيم

محمود تيمور بك

لوحات فنية للأستاذين : بدر أمين وشفيق رزق الله

يطلب الكتاب من مؤلفه بقهوة رمسيس بدمنهور ومن مكتبة النهضة بمصر ومكتبة فيكتوريا بالاسكندرية

الثمن خمسة قروش صاغ